دير ياسين

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

دير ياسين

اسم المؤلف: وليد حسن المدني

تصميم الغلاف: عبير طوسون

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2022/1600

الترقيم الدولي: 978-977-6634-77-0

الطبعة الأولى: 2022

وليد حسن المدني

دير ياسين

דיר יאסין

حكاية قرية قاتلت حتى نفاذ الذخيرة

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

والقـدس تعـرف نفسـها اسـأل هنـاك الخلـق يدْلُلْـكَ الجميـعُ،
فـكلُّ شيء في المدينـة ذو لسـانٍ، حـين تَسـأَلُهُ، يُبـينْ.

- تميم البرغوثي

تمهيد

(1)

شجرة الزيتون

بيت المقدس - أورشليم

(2 أكتوبر - تشرين الأول 1187م)

وقف أهل البلدة القديمة على أبوابها في انتظار رؤية الجيوش العربية وهي تعبر أبواب القدس بعد حصار دام ستة أيام، لم تستطع فيها قوات الفرنجة الصمود أمام حصار الجيوش العربية بقيادة الناصر صلاح الدين.

كان يومًا مشهودًا خرج فيه الرجال والنساء من بيوتهم إلى الأسواق للاحتفال بالقائد العربي الفاتح؛ فبعد معركة حطين وأهل البلدة القديمة لا يشغلهم إلا يوم دخول القائد العظيم بلدتهم، بعد احتلال دام أكثر من ثمانية وثمانين عامًا تعود الأرض إلى أصحابها.

لم أكن نَبتًّ حينها، بل كنتُ ما زلت ثمرة صغيرة في يد طفلٍ من أهل بيت المقدس، أقتطفها من غصن شجرتي الأم، وتشبث بها كأنها أمله الوحيد في الحياة، بينما يحمله أبوه على كتفيه يشاهد من أعلى التل الجيوش العربية وهم يدخلون من أبواب المدينة العتيقة.

مـع زيـادة الحشـود والزحـام، زاد تدافـع النـاس خصوصًـا بعـد ظهـور صـلاح الديـن عـلى صهـوة جـواده، حينهـا اختـل اتـزان الصبـي مـن عـلى كتـف أبيـه وكاد يسـقط عـلى الأرض. حـاول الصبـي أن يحافـظ عـلى توازنـه، وبحركـة غـير إراديـة تشـبث بكلتـا يديـه الصغيرتـين - اللتـين كانتـا ممسـكتين بي - بـذراع والـده وافتقـدني إلى الأبـد. ولكـن بعـض الفقـد يكـون ميـلادًا جديـدًا.

كنـت أسـتمع حينهـا إلى صـوت بـكاء الصبـي الصغـير عـلى ثمرتـه، التـي كانـت كل مـا يمتلـك مـن هـذه الدنيـا، شـاركته البـكاء وأنـا أشـعر بأقـدام المـارة مـن فوقـي، المهرولـين، تغرسـني في باطـن الأرض.

حـاول الصبـي عبثًـا العثـور عـليَّ وسـط خضـم هـذا التدافـع دون جـدوى، كنـت أسـتمع إلى أنينـه عـلى فقـدي، ذلـك الأنـين الـذي لفـت انتبـاه السـلطان صـلاح الديـن فلتفـت إليـه يواسـيه بينـما كانـت السـعادة باديـة عـلى وجـه أبيـه لاهتمامـه بصغـيره وهـو يفـسر لـه الأمـر عـلى اسـتحياء.

- لقد فقد ثمرة زيتون كان يلعب بها.

دنـا منـه صـلاح الديـن بابتسـامته المشرقـة، رَبَّـتَ عـلى كَتِفَـه، وهـو يتأمل عينيـه البريئتـين ويقـول له:

- لا تحـزن يـا صغـيري، غـدًا تُنبـت تلـك الثمـرة شـجرة كبـيرة، تلقـي بظلالهـا عليـك عنـد اشـتداد وهـج الشـمس، بعـد أن يعـم السـلام عـلى أرض بيـت المقـدس بأكملهـا، تذكـر مكانهـا وسـنأتي إلى زيارتهـا يومًـا مـا.

كانـت كلماتـه تحمـل لي الأمـل في الغـد، فقـد كان وعـدًا صادقًـا فـكل مـن مـرَّ هنـا عـاد إليهـا مـرةً أخـرى، فالقـدس تقبَـلُ كل مـن أتاهـا كافـرًا كان أم مؤمنًـا. ولكـن السـلام لم يـأتِ!

***

احتفلت السماء بفتح بيت المقدس فهطلت الأمطار ومعها شعرت بجذوري تخرج من رحمي تثبتني في باطن الأرض المبتلة، حتى رأت فروعي ضوء النهار لأول مرة.

نبته صغيرة على تلال المنطقة الغربية للقدس الشريف، شاء قدرها أن تكون شاهدة على تقلبات الدهر وأحداث جسام ولكن ما زال صوت بكاء الصبي الصغير ترنو في أذني.

***

(2)

أسطورة

تقول الأسطورة منذ قديم الزمن أنه في عهد سيدنا نوح، قضَى ربُّك أن يُغرق الكافرين ويُنجي المؤمنين مِن الطوفان العاتي، فنجَا سيدنا نوح ومَن آمَن معه - الذين رَكِبوا في السفينة - وكان الماء يُغطي سطح الأرض، وبعد انتهاء الطوفان العظيم، أطلَق نبي الله نوح من سفينة المؤمنين حمامةً بيضاء لعلها تأتي بما يُفيد انكشاف الماء عن الأرض، وبعد حين رجعَت الحمامة إليه وهي تَحمل في فَمها غُصنًا مِن أوراق الزيتون، فعرَف عندها أن غضبَ الله قد سكَن، ومنذ ذلك التاريخ أصبَحت أشجار الزيتون رمزًا للسلام والأمن.

***

(1933-1931)

الفصل الأول

(1)

(مدينة اللد - לוד)

8 أبريل - نيسان 1931

يسير بنا القدر لا نعلم من أين ولا إلى أين نذهب، يتوهم الإنسان أنه يخلق أفعاله، فيتشدق بها رجال الفلسفة، متغنين بقدرة العقل على الخلق، بينما جميعنا في النهاية تقودنا يد الزمن إلى قدر محتوم، كتلك اليد القابضة على ذراع صغيرها منذ أن غادرت المنزل في الصباح بينما الصغير الذي كان منشغلًا عنها بركل الحجارة في الشارع لا يعبأ من هَم الدنيا إلا الإفلات من قبضتها، وهي من فترة إلى أخرى تجذبه من ذراعه، تعيده إلى جعبتها.

طوال الطريق وأمه تحاول أن تسمعه كلامًا ربما لا يقدر عقل طفل في العاشرة من عمره على استيعابه، سمع لأول مرة كلمة (تحمل المسؤولية)، كانت دائمًا تخشى تصرفاته خصوصًا عندما كان يطرق بابها جار يشكو لها من تصرفاته بعد أن ضرب ابنه أو أتلف واجهة محل في الشارع، تحاول أن تطيب خاطره بكلمتين متوعدة للصغير - المختبئ خلف أريكة قديمة - بالضرب والعقاب عند عودة أبيه.

الآن سيترك الحي كله، ولن يجلب لها مشاكل مع أحد من الجيران مرة أخرى، بعد ما سمعه من كلام أمه مع جارة لها صباح اليوم أنها ذاهبة إلى معارف لزوجها في قرية بعيدة، ما بات يتذكر من اسمها إلا أنه يحمل نفس اسمه (ياسين)، ولكن كلمات أمه إلى تلك الجارة ما زالت عالقة في ذهنه.

- لقد ضاق الحال علينا وتخلى عنا القريب قبل الصديق، ولم يعد لنا مكان في (اللد). سنغادر في الصباح إلى القدس، أصدقاء كان بينهم وبين زوجي معرفة قديمة وأوصاني بالذهاب إليهم إذا أشتد علينا الحال.

صمتت برهه قبل أن تكمل:

- وهل أصعب من جفاء وغدر الإخوة!

قالتها ثم تنهدت، التفتت إلى الصغير الذي لاحظت وجوده ولم تكن تريده أن يسمع الحوار. حتى زيارة أخيها والتي لم تنقطع الدموع من عينيها بعدها، لم تشأ أن تُخبر بها أحدًا!

***

ولدت وداد في عائلة تاجر غلال وحبوب ثري من مدينة اللد. اشتغل والدها بتلك المهنة التي ورثها عن أجداده، وكان كل أمله في الحياة أن يورثها إلى ابنه لذلك لم يتوانَ أن يتزوج بعد وفاة أمها مباشرة أملًا في إنجاب ابن يرثه، رُزق من زوجته الثانية ببنت اسمها أحلام قبل أن يهديه القدر ابنه رشيد الذي اعتمد عليه منذ نعومة أظافره في تجارته، علَّمه كل كبيرة وصغيرة فيها، كان يعول عليه كثيراً في أن يحمل أعباء التجارة بعده وينميها.

نشأت غريبة في بيت والدها، كانت تشعر بالتفرقة في معاملة زوجة أبيها بينها وبين أخويها غير الأشقاء، لم يهتم والدها لأمرها بمجرد أن ولد